أنتِ الآن في الأُمنية فاعملي

أم الوليد

الحمد لله الذي كتب الآجال، وقدّر الأقدار، وجعل الموت راحة للأبرار ونقمة على الفجّار وتذكرة لأولي الأبصار، القائل في محكم تنزيله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥–٦]، أما بعد:

يروى أنّ إبراهيم التيميّ ﷺ، قال: «مَثَّلْتُ نفسي في الجنة، آكلُ ثمارها، وأشربُ من أنهارها، وأعانقُ أبكارها، ثم مَثَّلْتُ نفسي في النار، آكلُ من زقّومها، وأشربُ من صديدها، وأعالجُ سلاسلها وأغلالها؛ فقلتُ لنفسي: أي نفسي، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا؛ فأعملُ صالحًا. قلتُ: فأنتِ في الأُمنية، فاعملي» [محاسبة النفس لابن أبي الدنيا: ١٠].

هكذا أحيا العبد الصالح ضميره، بتصوّر ذاك الموقف الرهيب، وهو مشهد مواجهة العذاب الأليم الذي لا تطيقه الأنفس، ثم وجّه نفسه للنجاة منه بالإقبال إلى العمل. وهكذا ينبغي لكل مؤمن معالجة الغفلة بالخوف من الله؛ لأنّ التفكر في العاقبة يزيد من استحضار الخوف، فيُحيل ذلك النفس إلى العمل الصالح المنجي، أمّا طول الأمل فيُحيلها إلى العجز والركون.

وقد سأل رجُل ذا النون، فقال: «رحمك الله، ما الذي أنصبَ العباد وأضناهم؟ فقال: ذِكْرُ المُقام، وقِلّةُ الزاد، وخوفُ الحساب. ثم سمعتُه يقول بعد فراغه من كلامه: ولم لا تذوب أبدان العمّال، وتذهَلُ عقولهم، والعرضُ على الله أمامهم، وقراءة كتبهم بين أيديهم، والملائكة وقوفٌ بين يدي الجبّار ينتظرون أمره في الأخيار والأشرار. ثم قال: مَثِّلُوا هذا في نفوسهم وجعلوه نُصْبَ أعينهم» [حلية الأولياء للأصبهاني: ٩/٣٤٦].

وكما قال محمد بن إسحاق الثقفي: «كان يقال: من استعمل التسويف والمُنى لم ينبعث في العمل» [المتمنين لابن أبي الدنيا: ٦١]. وقد قيل: «ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غَلَبَ عليه الرجاء فسد» [مدارج السالكين لابن القيم: ١/٥١٣].

قال عبد الله بن المبارك ﷺ:

عَفَّتْ جَوَارِحُهُمْ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ
فَالصِّدْقُ مَذْهَبُهُمْ وَالْخَوْفُ وَالْوَجَلُ

إنّ الخوف هو عبادة الصالحين، وهو سوط الله الذي يقوّم به عباده الغافلين ويردّهم به إلى طاعته، ولهذا قال من قال من السلف: «الخوفُ سوطُ الله، يقوّم به الشاردين عن بابه» [مدارج السالكين: ١/٥٠٩]، وقيل أيضًا: «ما فارَق الخوفُ قلبًا إلا خرِب» [المصدر السابق].

وبذلك وجّه النبي ﷺ أمّته أيضًا، حيث قال: «أكثِروا ذِكر هادم اللّذات» [سنن الترمذي: ٢٣٠٧]، هادم اللذات، يعني: الموت.

وكان رجُل من العرب يقول لابنه: «أي بُني، إنّه من خاف الموتَ بادَر الفوتَ، ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعَت به التَّبِعات، والجنة والنار أمامك» [قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ١٩٨].

عندما يُكشف الغطاء عن النفس وتتجلّى لها الحقائق، وتُعاين عقاب الله ويأتيها اليقين، تدرك حينئذ قيمة تلك الحياة الفانية التي باعت لأجلها نعيم الخلود، فتحسّ بالمرارة وتكون في غاية اليأس والقنوط. عندها لا تطلب من المتاع شيئًا، ولا همّ لها سوى النجاة؛ فلا تتمنى غير الرجعة إلى الدنيا لتَدارك ما فاتها من الإصلاح، وهي أمنية الضيق والأسى، فيكون الرد على هذا الرجاء المتأخر: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فمن لم يعرف ربّه في الرخاء لا يعرفه الشدة.

إننا نعيش فرصتنا الوحيدة التي لا تعوَّض أبدًا، فإنّه ما بعد الموت من مستعتب، فإذا قضي الأمر وانقطعت الصِّلات، وأُغلقت الأبواب، فلا فُسحة للتوبة، ولا شفاعة في الشدة، ولا رجعة للعمل، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، وإنّ الآخرة هي القرار.

قال علي ﷺ: «ارتحلَت الدنيا مدبِرة، وارتحلَت الآخرة مقبِلة، ولكل واحدة منهما بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنّ اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل» [جامع الأصول لابن الأثير: ٢٦١٠]. فنحن إلى الله صائرون و لا بد من ذلك، وما ينفع نسيان الموت إذا كان الموت لا ينسانا؟!

الخشية هي: «الخوف بعِلم»، ومن وهبه الله إياها فقد أعطاه نعمة عظيمة لا تقدّر بثمن، فهي المُنطلق لصلاح الأنفس والاستقامة على الطريق، والمتأمل في سيرة الصحابة يجد أنهم كانوا في غاية الخوف مع غاية العمل؛ لأنهم كانوا أعلم الناس بربهم. فثمرة العلم النافع هي الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكما جاء في الحديث: «... والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذّذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجأَرون إلى الله، لَوَدِدْتُ أني كنتُ شجرة تُعضَد» [سنن الترمذي: ٢٣١٢].

قال عبد الأعلى التيميّ: «من أوتي من العِلم ما لا يبكيه لَخَليق أن لا يكون أوتي عِلمًا ينفعه؛ لأنّ الله تبارك وتعالى نعتَ العلماء، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] الآية» [حلية الأولياء: ٨٨/٥].

وثمرة الخشية هي العمل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ –إلى قوله– أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧–٦١]، وقال النبي ﷺ: «من خاف أَدْلَجَ، ومنْ أَدْلَجَ بلغ المَنزل، ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنة» [سنن الترمذي: ٢٤٥٠]. أشار النبي ﷺ في الحديث إلى التيقّظ في المسير، فمن خاف النار وخاف من غضب الله، جدّ في الطلب واستقام في السير واستمرّ. ومن خاف هنا رُفع عنه الخوف هناك؛ فلا يجمع الله على عبده خوفَين، كما أنّه لا يجمع عليه أمنَين، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ، أنّه قال: «وعزّتي لا أَجمع على عبدي خوفَين وأمنَين، إذا خافني في الدنيا أمّنتُه يومَ القيامة، وإذا أمِنني في الدنيا أخفتُه يومَ القيامة» [صحيح ابن حبان: ٦٦٥].

فمحطة الخوف هي الجنة، يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠–٤١]. قال مجاهد في تفسير الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]: «هو الرجُل يريد أن يُذنب الذنب، فيَذكر مَقام ربه، فيدَع الذنب» [التوبة لابن أبي الدنيا: ٦٧].

والخوف هو النجاة، كما جاء في الحديث، قال ﷺ: «وأمّا المنجيات: فالعدلُ في الغضب، والرضى، والقصدُ في الفقر، والغنى، وخشيةُ الله في السر والعلانية» [المعجم الأوسط للطبراني: ٥٧٥٤]. لذلك يُعد الخوف دليلًا على صحة الإيمان، وزواله من القلب مؤشر على ضعف الإيمان أو غيابه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

كيف لا وهو صادّ العِباد عن العصيان، كما لا يخفى من قصص الصالحين، من ذلك إيثار ابن آدم الموت والصبر عليه على قتل أخيه، فقال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

قال سليمان الداراني: «وَأَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» [حلية الأولياء: ٢٥٩/٩]، وقال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكَن الخوفُ القلوبَ أحرَق مواضعَ الشهوات منها، وطرَد الدنيا عنها» [مدارج السالكين: ٥٠٩/١].

وعن ذي النون، قال: «إنّ المؤمن إذا آمنَ بالله واستَحكم إيمانُه خافَ الله، فإذا خافَ الله تولّدتْ من الخوفِ هيبةُ الله، فإذا سكَن درجةَ الهيبةِ دامت طاعتُه لربّه، فإذا أطاع تولّدتْ من الطاعة الرجاء، فإذا سكَن درجةَ الرجاء تولّدتْ من الرجاء المحبة، فإذا استحكَمتْ معاني المحبة في قلبه سكَن بعدها درجة الشوق، فإذا اشتاق أدّاه الشوق إلى الأُنس بالله، فإذا أنِس بالله اطمأنّ إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم ونهاره في نعيم وسرّه في نعيم وعلانيّته في نعيم» [حلية الأولياء: ٣٥٩/٩].

وقال أيضًا: «الناس على الطريق ما لم يزُل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطريق» [مدارج السالكين: ٥٠٩/١]. كما أنّ الخوف من الله من أسباب التمكين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

عن أنس بن مالك ﵁، عن النبي ﷺ، قال «يقول الله تبارك وتعالى لأهوَن أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنتَ مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منكَ أهوَن من هذا وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك -أحسبه قال: ولا أدخلك النار-، فأبيتَ إلا الشرك» [صحيح مسلم: ٢٨٠٥]، فإن كان هذا أهوَنها عذابًا فكيف بغيره؟

وفي حديث أنس ﵁، قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بأنعَم أهل الدنيا، من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مر بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب...» [صحيح مسلم: ٢٨٠٧]، هذه صبغة واحدة من عذاب الله!

فالواجب على العبد الحذر من مولاه، وعدم الاستهتار بعذابه، فقد «أُوقِدَت النار ألفَ سنة حتى احمرّت! ثم أُوقِدَت ألف سنة حتى ابيضّت! ثُمَّ أُوقِدَت ألف سنة حتى اسودّت! فهي سوداء مظلمة!» كما جاء في حديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة ﵁.

وأختم بوصيّة رسول الله ﷺ، قال: «يا قومُ اطلبوا الجنة جَهْدَكُمْ، واهربوا من النار جَهْدَكُمْ؛ فإنّ الجنة لا ينام طالبُها، وإنّ النار لا ينام هاربُها، ألا إنّ الآخرة اليوم مُحَفَّفة بالمكاره، وإنّ الدنيا مُحَفَّفة بالشهوات» [المعجم الكبير للطبراني: ٤٤٩].

أسأل الله عز وجل أن ييمّن كتابنا، و ييسّر حسابنا، ويؤمّن خوفنا، ويعيننا على أنفسنا، ويهدينا الصراط المستقيم ويثبّتنا عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.